تداخل علوم اللسان وتكاملها العروض وعلاقته بالعلوم الشرعية

أ. ناصر لوحيشي
كلية الآداب العلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة.

تتداخل علوم اللّسان العربي تداخلاً يعسر الفصل بينها، إذ إنها تشكّل -مجتمعةً- بناءً مرصوصًا لا صدع فيه، وهي تتفق -مجملةً- في المقاصد والغايات.

لذلك كانت معرفة اللّغة والنّحو والبيان والأدب "ضرورية على أهل الشّريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسُّـنّة، وهي بلغة العرب... فلا بد من معرفة العلوم المتعلّقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة، وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام".[1] ذلك أن آلات الشرعية -كما يرى ابن جُزيّ-[2] هي أصول الفقه، وعلوم اللسان؛ وهي النحو واللّغة والأدب والبيان.

ولا شكّ أن الأدب -وهو معقِد حديثنا- معدود في زمر الأركان الأساس، فهو حفظ أشعار العرب وأخبارها، وهو الأخذ من كلّ علم بطرف، أي من علوم اللّسان أو العلوم الشرعية.[3]

ولعلّ هذا أن يكون قد دفع الأصوليين والمفسّرين والفقهاء والمؤرخين وكتّاب التراجم إلى حضّ المتعلّمين على دراسة علوم العربية وحثّهم عليها... فبيان الشريعة لّما كان مصدره عن لسان العرب، وكان العمل بموجَبه لا يصحّ إلا بأحكام العلم بمقدّمته، وجب على رُوّام العلم، وطلاّب الأثر أن يجعلوا عُظْم اجتهادهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جلّ عنايتهم في ارتيادهم، إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها، والوقوف على مُثلها ورسومها.[4]

ولا ريب أن معرفة وجوه العربية لا تُستحكم إلاّ بالتماس الضالّة والغريب في أشعار العرب، وبخاصة إذا علمنا "أن رواية الشعر العربي كانت مستمرّة قبل الإسلام، وفي صدره، حتى أخذت حركة الرواية في التفسير لدى الصحابة والتابعين تزيد من اهتمامهم في شأن الشعر العربي الجاهلي والإسلامي، وما ذلك إلا لعلمهم بقدرها وإدراك شأنها، حيث كانت الأداة الكبيرة والمنتشرة لحفظ اللغة العربية وشيوعها".[5]

ولقد كان فنّ الشعر أشرف الفنون عند العرب، فلا غرو أن جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، ومورد احتجاجهم، وشاهد صوابهم وخطئهم[6]، ومحكَم خصوماتهم، وأصلا يعدلون إليه.

وإذا كان ذلك كذلك، وجب على طلاّب الحقائق، وروّاد المعارف أن يتعرّفوا غريب النّـــزعة وعزيز المنحى كما يسمّيه ابن خلدون... ونعني به الشعر.. حتى يتبيّنوا حدّه وجوهره، مبناه ومعناه.

وبديء ذي بديءٍ يحسن بنا أن نذكّر باتفاق النقاد والدارسين على أن الوزن[7] والقافية من أهمّ ما يمتاز به الشعر وينفرد، إذ إنّ الشعر يقوم بعد النية "من أربعة أشياء، وهي اللّفظ، والوزن، والمعنى والقافية".[8]

ومن ثمّ كان الشعر كلاماً مفصّلاً قطعًا قطعا، تتساوى وزناً وتتّحدُ في مقطع صوتي، لتكوّن البيت الشعري، فإذا تعدّدت الأبيات كانت القصيدة. وليست القصائد جميعا على وزن واحد، وإنّما تختلف موازينها، ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمّنها **علم العروض**.[9]

ربّ سائل يقول: وما جدوى علم العروض؟! وما علاقته بعلوم اللّسان الأخرى؟!.

إنّ الذي لا مراء فيه كون العرب القدامى يعرفون الوزن بالسليقة، فقد كان شاعرهم سليقيا، ينظم فيَهزّ، ويُسمع فيُطرب، ويقول فيغرب، ولكنّه أتى على المجتمع العربي حين من الدهر، ومنذ أواخر القرن الأوّل الهجري أصبحت فيه الحاجة إلى تأصيل الأوزان وتقعيدها ماسّة، وهاهي البصرة تنجب لنا عبقريًّا كلّف نفسه ذلك، وآلى عليها أن يقوم بأمر التأسيس والتأصيل، وهو الخليل بن أحمد الفراهيديّ، المتوفّى سنة 170 أو 175 هـ.

وتتّفق كتب التراجم والأعلام على زهد الخليل وتعفّفه، فلقد كان أعلم الناس وأذكاهم، وأفضل الناس وأتقاهم[10] وكان "طرازًا خاصًّا في الدارسين، كان

لا يكتفي من العلم بالجمع والاستيعاب فعل الحاطب بليل، فليس العلم استيعابًا للمسموعات، ولا استظهارًا للمحفوظات، ولكن العلم هو الحفظ والفحص والنقد والتمثّل". [11]

ولقد مكّنه حذْقه وعقله من وضع علم العروض، معتمدًا في ذلك البناء[12]، أي ما بنت عليه العرب شعرها، ومستندًا إلى التحليل والمقايسة.

وإذا كان النحو معيار الكلام به يعرف معربُه من ملحونه[13]، فإن العروض معيار أو مقياس يعرف به موزون الشعر من مكسوره ومختلّه. فالعروض ميزان الشعر، وهي ترجمة عن ذوق الطباع السليمة.[14]

ويبيّن الفيروزآبادي معاني العروض فيقول: "العروض مكّة، والمدينة حرسهما الله تعالى، وما حولهما، والناقة التي لم تُرَضْ، وميزان الشعر، لأنّه به يظهر المتزن من المنكسر، أو لأنّها ناحية من العلوم، أو لأنها صعبة، أو لأنّ الشعر يعرضُ عليها، أو لأنه ألهمها الخليل بمكة،... والناحية، والطريق في عُرض الجبل، في مضيق، ومن الكلام فحواه،... والكثير من الشيء، والغيمُ، والسّحاب...". [15]

والثابت الراجح أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو واضع أصول هذا العلم وقواعده. فهو الذي استنبط الأوزان، وفكّ البحور وسمّاها، انطلاقًا من الدوائر الخمس.

على الرّغم من أن بعضهم يرى رأيًا آخرَ، فحواه أن الخليل كان قد سُبق إلى هذا العلم، وأن العرب كانت على علم بقواعده، ولا سيما قواعد الهزج والرجز، وقد استدلوا على ذلك بنص لابن فارس، مُفادُه: "فإن قال قائل فقد تواترت الروايات بأن (أبا الأسود) أوّل من وضع العربية، وأن الخليل أوّل من تكلّم في العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول: إنّ هذين العلمين قد كانا قديمًا،

وأتت عليهما الأيّام، وقلاّ في أيدي الناس، ثمّ جدّدهما هذان الإمامان، وقد تقدّم دليلنا في معنى الإعراب، وأما العروض فمن الدليل على أنّه كان متعارفًا معلومًا، اتفاق أهل العلم على أنّ المشركين لمّا سمعوا القرآن، قالوا أو من قال منهم: "إنّه شعر"، فقال (الوليد بن المغيرة) منكرًا عليهم: "لقد عرضت ما يقرؤه محمّد على أقراء الشعر، هزجه ورجزه وكذا وكذا، فلم أره يشبه شيئًا من ذلك" أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟"(16) هكذا يعلّق ابن فارس... ولكنّا نرى أن المقصود بالهزج والرجز هنا غيرُ البحرين أو الوزنين المعروفين الآن.

بيد أن الأهم من ذلك كلّه كون علم العروض خطيرًا في درس اللّسان العربي، وفي درس التاريخ العربي قديمه وحديثه، إذ إنّه يثمر مُكنةً على فهم الشعر العربي، وتذوّقه تذوّقًا يغرس أنبل القيم ويزرع أشهى الأغراس.

"ولقد توسّع علماء العربية في درس علم العروض، حتى ذهب بعضهم إلى أن حُكم معرفة هذا العلم: هو الوجوب الشرعي، وذلك لنعرف من خلاله أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ليسا من الشعر في شيء، على الرّغم من موافقة بعض آيات الذكر الحكيم، وحديث رسول الله ρ لبعض بحور الشعر".(17)

فإذا كانت معرفة الحدود بين القرآن وبين الشعر واجبة، فإنّ تعلّم العروض واجبٌ، بناءً على أنّ ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب، فهذا الدّمنهوري يرى في الحاشية الكبرى أن معرفة العروض فرض عين على كلّ مسلم بناءً على منع التقليد في العقائد.(18)

ويذكر الجوهري فوائد العروض فيقول: "وفوائدها ثلاث: إحداها أنّه يستعين بها من خانه الذوق، وثانيتها أنّه يعرف بها مفارقة القرآن للشعر ومباينته له، وثالثتها أنّه يعلم بها ما يجوز في الشعر، مما لا يجوز فيه".(19)

ولعلّ من الإشكالات والمسائل التي استوقفت العروضيين والمفسّرين والأدباء والنقاد واللغويين؛ مسألةَ القرآن والشعر؟ أو مسألةَ القرآن والعروض، لكون الوزن مختصًّا بالشعر ومميّزاً له.

فهل القرآن شعر؟! أم هل هو نثر؟! أم هل هو بينهما؟! أم هل القرآن شيء آخر؟!.

يعلم كثيرٌ منّا أن العرب حين سمعت القرآن... قال بعضهم: إنّه شعر، وقال آخرون: إنّه سحر... للدلالة على أنّه يختلف عن حديث العامة الدّهماء.

ويقف بعض الأدباء والنقاد -في هذا العصر- مواقف متباينة، فمنهم من يقرّب القرآن من دائرة الشعر، ومنهم من يجعله أقربَ إلى النثر، وآخرون قالوا: إن القرآن ليس شعرًا، كما أنّه ليس نثرًا، وإنّما هو قرآن.[20]

فإبراهيم أنيس يرى أن القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ مبين، وهذا اللسان يميّزه الجانب الموسيقي الغنائي، حيث تستمتع الأسماع بلفظ كلماته، وليس يعيبه ذلك، بل إنّه يعدّ جانبًا من جوانب الجمال فيه، إذ إنّ الكلام العربيّ كلام موسيقي في أكثر نواحيه.

غير أن جمال الأسلوب القرآني يبدو في تناسق المقاطع وانسجامها، فالشاعر يستطيع أن يقتبس أو يضمّن بعض آياته دون عناء أو عنت، وأن ما وقع في القرآن من الآيات الموزونة الموسيقية هو ممّا تطمئنّ إليه الآذان وتطرب له النفوس، وينفذ إلى القلوب.[21]

وأمّا زكي مبارك فيعدّ القرآن الكريم أثرًا أدبيًا، يختلف اختلافًا ملحوظًا عن الآثار الأدبية العربية، ويتفرّد بخلوّه من الشعر الموزون خلوًا تامًّا... والقرآن- عنده- ليس بشعر- لأنه خالٍ من القوافي والأوزان، وهذا موضع اتفاق.[22]

ونحسب أن كلام زكي مبارك يفتقد الدّقّة باتفاق العلماء والمفسّرين والعروضيين الذين يؤكّدون وجود كلمات في القرآن الكريم موزونة، وأخرى موزونة مقفّاة -كما نبيّن لاحقاً-. ولسنا ندري ما المقصود بما أورده عن النظم الغنائي، والتغنّي، والوجهة الموسيقية؟! حيث إنّه رأى أن القرآن الكريم قد نظم نظمًا غنائيًا، وأن ترتيل القرآن والتغنّي به كان معروفًا في صدر الإسلام، متسائلاً عن قوانين التغنّي بالقرآن من الوجهة الموسيقية مشيرًا بُعَيْد ذلك إلى أن المعنى هو الأساس في نظم القرآن، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة في صياغة الآيات.[23] بيد أن صفاء خلّوصي يحاول الجمع بين الشعر والنثر مضيفًا صفة: السّماوي، فيقول: "إن القرآن ليس شعرًا ولا نثرًا، وإنّما هو نثر إيقاعي سماويّ من أسمى ما يكون، ولولا هذا الإيقاع الخاص به، الذي لا يجاريه أي إيقاع شعري أو نثري أبدًا، لما أمكن تجويده، والتجويد ضرب من الغناء الدّيني، وعلى ذلك يجب أن نتبيّن هذه التفاعيل الرائعة التي يَزدوج بعضها مع بعض، فتؤلف هذا التأثير القوي المتّسق الذي لا نجد له مثيلاً أو ضريبًا في أدب الدنيا،... فالإيقاع القرآني خاص به لا يجارَى ولا يبارَى، وهو في الآيات المكّية أشدّ وأقوى منه في الآيات المدنية".[24]

وعلى الرّغم من ورود لفظة "الشعر" مرة واحدة في القرآن، كلفظ "الشعراء" وفي سورة هي سورة الشعراء. وعلى الرغم من ذكر كلمة "شاعر" أربع

مرّات... بغرض نفي الشاعرية عن الرسول (ص) فإننا نجد في القرآن كلامًا موزونًا بحسب البناء الذي بنت العرب شعرها عليه.

وهل يفاجئنا ويدهشنا قولُهم: إنّ في القرآن من جميع البحور شعرًا.(25) فإذا قرأنا قوله تعالى:

أ ــ [فمن شاء فليُومن ومن شاء فليكفر](26)، ألفيناه يوافق توالي حركات بحر الطويل وسكناته.

وحين نقرأ قوله تعالى :

ب ــ [فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم](27) فإنه يذكّرنا بتفيعلات البسيط.

جـ ــ وقوله: [تلك آيات الكتاب الحكيم](28)، أو قوله: [تلك آيات الكتاب المبين](29)، يوافق وزن المديد.

د ــ وقوله تعالى : [ويُخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قومٍ مومنين](30) فهو يوافق أجزاء الوافر.

هـ ــ وقوله تعالى: [صلّوا عليه وسلّموا تسليما](31)، يذكّرنا بإيقاع بحر الكامل.

و ــ وقوله سبحانه: [كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا](32) يكاد يوافق وزن الهزج تماماً لولا زحاف القبض في أحد الأجزاء.

ز ــ ونقرأ قوله تعالى:[وذلّلت قطوفها تذليلاً](33) أو قولَه:[والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحًا](34) أو قولَــه: [والذاريات ذروًا، فالحاملات وِقرًا](35)، فتذكرنا هذه الآيات بأجزاء الرّجز... وهو أكثر البحور مرونة واتساعاً، نظرًا إلى زحافاته وعلله الكثيرة. ولسنا ندري لِمَ حمل الباقلاّني، والذين نقل عنهم وروى، قوله تعالى [والذاريات ذرواً]، [والعاديات ضبحًا] على بحر البسيط.

ح ـــ وقوله تعالى: [وجفان كالجواب وقدور راسيات][36] أو قوله تعالى: [مسلمات مؤمنات قانتات تائبات][37] أو قوله في سورة النّمل: [أوتيتْ من كلّ شيء ولها عرش عظيم][38] فإنّه يوافق أجزاء الرّمل.

ط ـــ وفي قوله تعالى: [من تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه][39] وقوله: [ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم][40] نجد ما يوافق وزن الخفيف.

ك ـــ وأما قوله سبحانه: [النّارِ ذات الوقود، إذ هم عليها قعودٌ][41] فيوافق إيقاع المجتث.

ل ـــ وقوله تعالى: [ومن يتق الله يجعل له مخرجًا][42] فموافق بحرَ المتقارب.

م ـــ وفي قوله تعالى: [إنّا أعطيناك الكوثر][43] ما يذكّرنا بوزن دق الناقوس، أو ركض الخيل (بحر المتدارك مقطوع الأجزاء).

ولا شك أنّ في القرآن الكريم آياتٍ كثيرةً تشبه الآياتِ المذكورةَ آنفًا، في انسجام مقاطعها وتوالي حركاتها وسكناتها بحسب النظام العروضي الخليلي.. أفلا يمكن بعد هذا وينبغي أن نقول إن في القرآن شعرًا... أو كلامًا موزونًا مقفّى؟!.

اليقين أن خصوم العربية وأنصارها متفقون على اختصاصها وتفرّدها بسمات لا توجد في كثير من اللغات، ومن ذلك نظام توالي الحركات والسكنات... حيث إن العرب كانت تروم الخفّة، وتنفر من الثّقل، وهو الذي يجعل كلام الناس أحياناً كثيرة، متزنًا منتظمًا تميّزه الآذان عند سماعه. يقول الجاحظ: "اعلم أنّك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن فاعلن كثيرًا، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرًا، ولو أن رجلاً من الباعة صاح "من يشتري باذنجان" لقد كان تكلّم بكلام في وزن

مستفعلن مفعولان، فكيف يكون هذا شعرًا، وصاحبه لم يقصد إلى الشعر، ومثل هذا المقدار من الوزن، قد يتهيّأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يُعْلم أنّه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرًا. وهذا قريب والجواب فيه سهل بحمد الله، وسمعت غلامًا لصديق لي، وكان قد سقى بطنه يقول لغلمان مولاه: اذهبوا إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى(*).. وهذا الكلام يخرج وزنه "فاعلاتن مفاعلن"... وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبدًا. ومثل هذا كثير لو تتبّعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته".[44]

فلا ريب أن كلامنا وكلام العرب، زاخر بما يشبه ذلك، فلا تكاد خطبة أو رسالة أو مقالة، إلا وفيها كلام أو قطع متجاورات موزونة ومن أمثلة ذلك:

- يا صديقي كيف حالك (من بحر الرّمل).
- أغلق الباب وائتني بالطّعام (من بحر الخفيف).
  واسقني الماءَ يا غلام سريعًا[45] (من بحر الخفيف).
- أنا إن سألتك حاجتي (من بحر الكامل).
- ذهبت على المدينة كي أراه (من بحر الوافر).
- وجوههم أبلجُ من أنواره (من مقامات الحريري) (من بحر الرجز).
- كيف أنت اليوم يا أستاذنا؟ (من بحر الرمل).
- هل ترى أن نذهب اليوم إلى سوق الخضار[46] (من بحر الرّمل).(**)
- عند أخي سيارة مثل التي كانت لكم (من بحر الرّجز).

فهل نقول بعد هذا إن هذه الكلمات: أشعار أو أبيات أو أشطر؟!.

الواضح أن التباين "بين لغة الشعر ولغة النثر ليس تباينًا جوهريًّا، فالمادة الغفل لكل منهما واحدة، هي أصوات اللغة ومقاطعها، ولكن المقاطع تتجمّع في الشعر بترتيب معين لا يكون في النثر إلا عرضًا".[47]

فلا عجب بعد ذلك، وليس بمستشنع إذا جرى مثل هذا على الاتفاق وهو أكثر من أن يعدّ ويحصى، فهو يجري على ألسنة الناس من صغير وكبير، وفصيح وأعجمي، وذلك عن غير قصد إليه، ولا علم به، ولا يدري أحد أو يشعر أنه أتى بشعر ولا نحا نحوه[48] "فهذا من المنثور الذي يوافق المنظوم، ومثل هذا من كلام الناس كثير".[49]

فلا يسمى الشعر شعرًا "حتى يكون له وزن وقافية على من رأى أن الشعر ما جاوز بيتاً واتفقت أوزانه وقوافيه، ويستدل بأن المصرّع أدخل في الشعر وأقوى من غيره".[50]

ولقد أخرج العروضيون ويقْدُمهم -الخليل والأخفش- المشطور والمنهوك من الشعر وعدّوا ذلك من قبيل السجع، ورأوا أن ما كان على تفعيلة واحدة لا يعدّ شعرًا.[51]

بل إن بعضهم اشترط، في الشعر كثرة القرائن بعد النّية والقصد، فليس خليقًا أن يقال لأي كلام إنه شعر، وقد جاء بيان ذلك في الحاشية، حيث إنه لا يكون شعرًا لو وقع من متكلّم لفظ موزون لم يقصد كونه على طريقة الموزون، كما يتفق لكثير من الناس، ويقع مثل ذلك حتى لعوام لا شعور لهم بالشعر، ولا

إلمام لهم بالوزن البتّة. فإذا لم يظهر القصد، ولم يتبيّن القائل الوزن وضوابطه، فلا يحمل ذلك على الشعر، إلا إذا تكرّر كبيتين فأكثر، لدلالة القرينة حينئذ على قصد الوزن.(52)

ولذلك كان المتقدّمون يشترطون التعمّد والقصد، إذ لا بدّ من تعمّد القائل الوزن، والمراد بتعمّد الوزن هو أن يقصد الوزن أولاً وابتداءً. ومن ثمّ كان الشعر عندهم هو القول الموزون وزنًا عن تعمّد.(53)

ولعلّ الذي دفع الأئمة الأعلام إلى الانبراء والاعتراض لتلك الصيحات والدعاوى التي زعم -أصحابها أن في القرآن شعرًا-، بدليل الوزن الذي اكتنف بعضا منه- اعتقادهم أن أولئك الطاعنين لم يكونوا في العير ولا في النفير، فأين هم من علم البيان؟ وأين هم عن باب النثر؟ وأين هم عن باب النظم؟ ما عرفوا أن الشعر ما هو ؟ ما عرفوا أن الوزن ما هو؟... ترى هل راعوا أحكام علم العروض في أعاريضه وأضربه؟! وهل عرفوا المنصور من المذاهب في معنى الشعر وحدّه؟!.(54)

لقد كان علماء اللغة والأدب والتفسير حِراصا على ألاّ يقاربَ كلامُ الله المنـــزّلُ في قطعة وافية منه شيئًا من أوزان الشعر القديم، ورأوا أن ما وافق الأوزان -من القرآن والحديث- فإنما هو من قبيل الاتفاقات النادرة، ولا تقوم بها للملحد حجّة(55)، ومثل ذلك كثير في المؤلفات والمصنّفات والأقوال والرسائل والخطب...

ويؤكّد القرآن ذلك، حيث قال الله تعالى: [وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ](56). وقال في سورة الحاقة: [وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ](57).

وإذا عرضنا أقوال المفسّرين، وتقصّينا تأول العروضيين، وآراءهم في الآيتين ألفيناها متباينة بعض التباين بالنظر إلى ظاهر النص وجوهره، أو لنقل من حيث نفي اللفظ والشكل ونفي المعاني والأخيلة. فقد وجدنا صاحب التفسير الكبير يحمل ما جاء في القرآن على المفهوم الظاهر، "وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له، وذلك لأن الشعر لا يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن. فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعًا للفظ، لأنه يقصد لفظًا به يصحّ وزن الشعر أو قافيته، فيحتاج إلى التحيّل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى وزنه قصدًا أوّلياً، وأمّا من يقصد المعنى فيُصدِر موزونًا مقفّى فلا يكون شاعراً".[58]

وهذا إبراهيم أنيس يقول: "أمّا نفي الشعر عن القرآن، فليس المراد منه إلا نفي معانيه وأخيلته، تلك التي تصوّر الأمور على غير حقيقتها، ولا يسلك فيها الشاعر إلا مسلك العاطفة، غير مستوحٍ من العقل والمنطق إلهامًا، فهو حرّ الخيال يذهب فيه كل مذهب ويصوره في الصورة التي يرتضيها فنّه وعاطفته، وقد يصوّر الحقّ باطلاً والباطل حقًّا".[59]

وأما القرطبي، فقد ذهب مذهبًا يؤكّد فيه أن الله تعالى أراد نفي العلم بالشعر وأصنافه وطرقه وأعاريضه وأضربه وقوافيه عن النبي (ص) إذ لم يكن موصوفًا بالشاعرية اتفاقًا، فتلك قريش تراوضت فيما يقولون للعرب إذا قدمت عليهم، فقال بعضهم: نقول: إنه شاعر، فقال أهل الفطنة والحذاقة منهم: والله لتكذبنّكم العرب[60]، فإنهم أعرف بأصناف الشعر وأقرانه، أي أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده فإن ذلك لا يشبه أشعارها، ولا يلتئم أنه شعر البتّة. ومن ثم فلا مناسبة

بين القرآن وبين الشعر إذا حقّقته وما ينبغي للنبي (ص) قول الشعر، وما يصح له ولا يليق بحاله، ولا يتطلب لو طلبه، بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له ولم يتسهّل، ناهيك عن كونه أميّا لا يهتدي إلى الخط، لتكون الحجّة أثبت والشّبهة أدحض.. وما ورد من كلامه موزونًا فإنما رمى به على السليقة من غير صنعة ولا تكلّف، إلا أنه اتفق من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه أن جاء موزونًا، كما يتفق في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة ولا يسمّيها أحدٌ شعرًا، لأنّ صاحبه لم يقصد الوزن.(61)

ومما ذكره أهل التفسير والتراجم والسّير، أن النبي (ص) لم يكن يحفظ الأشعار على أوزانها السّليمة الصحيحة فإذا تمثّل ببيت زحفه وكسر وزنه أو لم يتمّه، فكان يحرز المعاني فقط(62)..، وقد روي أن الشعر كان أحب إليه (ص) من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتّى له فلا يقوله.

ويبدو لنا أن هذه المسألة واجبة المراجعة والتثبت.. إذ كيف يحصل لبعض العامّة أن يقع في حديثهم كلام موزون... وهو ليس شعرًا طبعًا ومنطقًا... ولا يحصل للنبي (ص) مثل ذلك، وهو أفصح العرب، وقد أوتي جوامع الكلم. ثم: ألم يستحسن النبي (ص) الشعر..؟! وهل حفْظ المرء أبياتًا من الشعر يجعله شاعرًا بالضرورة؟! ثم إن قولهم : كان (ص) إذا تمثّل ببيت من الشعر كسر وزنه... وكأنّ هناك تعمّدًا وخوفًا وشكًّا في النبوة والرسالة؟! وكأنّ الرّسول (ص) أعجمي لم ينشأ في البيئة العربية؟! (63)

ونعتقد أن ردّ الدعاوى ودحض الشبهات، ينطلق أوّلاً ورأسًا من إدراك حقيقة الشعر وحدّه وضوابطه وأوزانه، وهذا ما يبحثه علم العروض والقافية. كما أن المسألة ينبغي ألاّ تعالج بمعزلٍ عن العلوم الأخرى؛ كالنقد الأدبي، والدراسات البلاغية البيانية.

ونحسب أن الباقلاني بلغ المراد أيما بلوغ حين درس قضايا الإعجاز، فنفى عن القرآن القول الشعري مبنًى ومعنًى ناظرًا إلى ظاهرة التعادل والتساوي، مستدلاً بآراء المتقدّمين في الشعر، حيث رأى أهل صناعة العربية أنّ أقلّ الشعر بيتان متفقان وزنًا وقافيةً، وقالوا: إنّ ما كان على وزن بيتين، إلا أنّه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر، بل إنّ بعضهم بالغ وغالى، فرأى أن أقلّ ما يكون منه شعرًا أربعةُ أبيات، متفقة وزنًا وقافيةً، والحق أنه لم يتّفق ذلك في القرآن بحال...، وحتى إنّ الموزون من الآيات يختلف من حيث الرّوي، ومتى اختلف الرّوي خرج عن أن يكون شعرًا.[64]

ولقد أدرك فصحاء العرب هذا، فلم يبادروا إلى معارضته لأن الشعر مسخّر لهم سهل عليهم، ولذلك كان يقول بعضهم: لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه.

الهوامش:

[1] ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر (دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان) ج2، ص: 1055.

[2] يراجع: أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، القوانين الفقهية (الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1982) ص: 425.

[3] يراجع: ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص: 1069.

[4] يراجع: مجد الدين بن يعقوب ـــ الفيروزآبادي ـــ القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1420 هـ/1999م. خطبة المؤلّف، ص : 32.

[5] خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، ط 2 (دار النفائس، 1406هـ /1986، بيروت، لبنان) ص: 145.

[6] يراجع: ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص: 1098.

[7] يراجع: أبو الفرج قدامة بن جعفر ـــ نقد الشعر ـــ ت: كمال مصطفى، ط 3 (مكتبة الخانجي ـــ القاهرة ـــ مصر، 1978 م)، ص: 17.

ويراجع: أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ت: عبد العزيز بن ناصر المانع (مطبعة المدني، توزيع مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر)، ص: 615.

[8] أبو علي الحسن ـــ ابن رشيق القيرواني ـــ العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، ت: عبد الحميد هنداوي، ج1، ط1 (المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1422 هـ ـــ 2001م)، ص: 108.

[9] يراجع: ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص: 1098/1097.

[10] يراجع: عبد الرحمن جلال الدين ـــ السيوطي ـــ المزهر، شرحه، وضبطه: محمد أحمد جاد المولى بك وآخران، ج2 (منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1408 هـ ـــ 1987 م)، ص: 401.

[11] مهدي المخزومي، عبقري من البصرة، ط 2 (دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1406هـ/ 1986 م)، ص: 27.

[12] يراجع: جار الله الزمخشري، القسطاس في علم العروض، ت: د. فخر الدين قباوة، ط 2 (مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1410 هـ / 1989 م)، ص: 70.

[13] يراجع: د. عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، (دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1974 م)، ص: 07.

[14] يراجع: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، عروض الورقة، تح: محمد العلمي، ط 1 (دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1410 هـ / 1984 م)، ص: 09.

[15] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (عرض)، ص: 580/579.

[16] أبو الحسن أحمد بن زكرياء الرازي بن فارس، الصاحبي في فقه اللّغة العربية ومسائلها، وسنن العرب في كلامها، ت: عمر فاروق الطبـــاع، ط 1 (مكتبة المعارف، لبنان، 1414 هـ / 1993)، ص: 42/41.

[17] زين كامل الخويسكي، العروض العربي ـــ صياغة جديدة (دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996 م)، ص: ل. ويراجع كذلك: ابن رشيق، العمدة، ص: 108.

[18] ط 1 (مطبعة التقدّم العلمية، مصر، 1322 هـ)، ص: 12.

[19] عروض الورقة، ص: 09.

[20] هو طه حسين في حديثه عن الشعر والنثر.

[21] يراجع: موسيقى الشعر، ط 3 (مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، 1965 م)، ص: 309/308.

[22] يراجع: النثر الفنّي في القرن الرابع (دار الجيل، بيروت، لبنان)، ج1، ص: 46/45.

[23] م.ن، ص: 48.

[24] فن التقطيع الشعري والقافية، ط 5 (مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1397 هـ /1977 م)، ص: 390.

[25] يراجع: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي -السكاكي- مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور. ط 2 (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407 هـ / 1978 م)، ص: 598/599.

[26] سورة الكهف، الآية: 29 (اعتمدنا رواية ورش عن نافع المدني).

[27] سورة الأحقاف، الآية: 24.

[28] سورة يونس، الآية: 1.

[29] سورة الشعراء، الآية: 2.

[30] سورة التوبة، الآية: 14.

[31] سورة الأحزاب، الآية: 56.

[32] سورة طه، الآية: 79.

[33] سورة الإنسان، الآية: 14.

[34] سورة العاديات، الآيتان: 1 - 2.

[35] سورة الذاريات، الآيتان، 1 - 2.

[36] سورة سبأ، الآية: 13.

[37] سورة التحريم، الآية: 5.

[38] الآية: 23.

[39] سورة فاطر، الآية: 18.

[40] سورة الفرقان، الآية: 65.

[41] سورة البروج، الآيتان: 5-6.

[42] سورة الطلاق، الآية: 2.

[43] سورة الكوثر، الآية: 1.

(*) وزن هذا الكلام هو: فاعلن مفاعلن (متفعلن)، فعلاتن مفاعلن (متفعلن).

[44] أبو عثمان عمرو بن بحر ــ الجاحظ ــ البيان والتبيين، ج1 (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان) ص: 159.

[45] يراجع: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، ت: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط1 (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421 هـ /2001م) ص: 46.

[46] يراجع: إسماعيل جبرائيل العيسى، نقض أصول الشعر الحر ــ دراسة نقدية في العروض وأوزان الشعر الحر"، ط 1 (دار الفرقان، عمان، الأردن، 1406 هـ ــ 1986 م)، ص: 57/56.

(**) في الكتاب: من بحر الوافر... وهو سهو مطبعي.

[47] علي يونس، نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي (الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، 1993 م) ص: 84.

[48] يراجع: أبو الحسن بن أحمد العروضي، الجامع في العروض والقوافي، ت: د. زهير غازي زاهد، أ. هلال ناجي، ط 1 (دار الجيل، بيروت، لبنان، 1416 هـ ــ 1996 م)، ص: 191.

[49] أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه، العقد الفريد، ش و ض : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط 3 (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1403 هـ/ 1983 م) ج 5، ص: 283.

[50] ابن رشيق القيرواني، العمدة، ص: 135.

[51] يراجع: صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، ص: 123.